

الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته في النفس قلة رؤيته وأنه مما يحس بالفينة بعد الفينة وفي الفرط بعد الفرط وعلى طريق الندرة وذلك أن العيون هي التي تحفظ صور الأشياء على النفوس وتجدد عهدا بل وتحرسها من أن تدثر وتمنعها أن تزول ، ولذلك قالوا « من غاب عن العين فقد غاب عن القلب » ....

وإذا كان هذا أمراً لا يشك فيه بانّ منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتدل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع . ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الاعلى أقرب فهو أدنى وأنزل وما كان إلى الطرف الثاني أذهب فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر (١) .

لقد كشف عبد القاهر عن سر جمال التمثيل وتأثيره في النفوس بهذه العبارات البليغة ، أما فصاحته وبلاغته فقد عرض لها بأسلوب آخر في كتابه « دلائل الاعجاز » وقال إن فصاحة التمثيل عقلية أو معنوية لا لفظية ، وذلك « انه ليس من عاقل يشك اذا نظر في كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان ابن محمد حين بلغه أنه يتلكأ في بيعته : « أما بعد فاني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى فاذا أتك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » . يعلم أن المعنى أنه يقول له : بلغني أنك في أمر البيعة بين رأيين مختلفين ترى تارة أن تباع وأخرى أن تمتنع من البيعة فاذا أتك كتابي هذا فاعمل على أي الرأيين شئت ، وأنه لم يعرف ذلك من لفظ التقديم والتأخير أو من لفظ الرجل ولكن بان علم أنه لا معنى لتقديم الرجل وتأخيرها في رجل يدعى إلى البيعة ، وأن المعنى على أنه أراد أن يقول أن مثلك في ترددك بين أن تباع وبين أن تمتنع مثل رجل قائم ليذهب في أمر فجعلت نفسه تريه تارة أن الصواب في أن يذهب وأخرى أنه في أن لا

(١) اسرار البلاغة ص ١٥١ .